"أفكر أني أفكر، إذن أنا موجود، فيما أفكر"*

نجيب الحصادي

يستهل درتسكي مقالته بقول إن الحجج الصحيحة، حتى ذوات المقدمات الصادقة، لا تأخذك بعيدا إذا كنت لا تعرف ما إذا كانت المقدمات صادقة. حقيقة أنني في هيلدلبرغ لا تمنحني مبررا للاعتقاد بأنني في ألمانيا ما لم أعرف أنني في هيدلبرغ (أو كان لدي على الأقل مبرر للاعتقاد في كوني هناك).

يمكن التعبير عن قول درتسكي هذا عبر التمييز بين نوعين من الحجج (arguments). الحجة، وهي مجموعة من القضايا تتألف من مقدمات ونتيجة، تكون صحيحة (valid) إذا كان صدق مقدماتها يستلزم (بمعنى يضمن ضمانا مطلقا) صدق نتيجتها. بتعبير آخر، يستحيل في الحجة الصحيحة أن تصدق المقدمات وتكذب النتيجة. والحجة تكون سليمة (sound) إذا كانت صحيحة وكانت مقدماتها صادقة. مفاد حكم درتسكي هو أنه لا قيمة للحجة الصحيحة ما لم تكن سليمة. الحجة التي تستند على مقدمة تقول إن الطيور أسماك، والأسماك فيلة، وتخلص إلى أن الطيور فيلة، حجة صحيحة، لكنها لا تأخذنا بعيدا، لأن مقدمتها باطلة. على ذلك، فإن علم المنطق معني أساسا بصحة الحجج، ولديه معايير لحسم هذا الأمر نسبة لعدد لا حصر له من الحجج، على الرغم من وجود حجج لا سبيل للبت في صحتها. أما صدق مقدمات الحجج فمسألة لا تعني المنطق، لأنها ترتبط بعلاقة هذه المقدمات بالواقع، الذي يشكل موضع اهتمام العلم، وكل نشاط معرفي آخر. لكن هذا لا يقلل بحال من أهمية ما يقوم به المنطق. إذا عرفنا أن الحجة صحيحة، ولا سبيل لنا لمعرفة هذا إلا بالمنطق، فكل ما نحتاجه للتأكد من صدق نتيجتها هو التأكد من صدق مقدماتها. وبطبيعة الحال فإن حقيقة أن درتسكي مهتم بالسياق المعرفي هو ما يجعله معنيا بالحجج السليمة.

وعلى أي حال فإن درتسكي يخلص من مثله إلى أن الاعتقاد في صحة الكوجيتو (أنا أفكر، إذن أنا موجود) مؤسس، أو ينبغي أن يكون مؤسسا، على الاعتقاد في صدق مقدمته (أنا أفكر). هذا يعني أنه ليس للمرء حق في إقرار أنه موجود مالم يكن لديه حق في إقرار أنه يفكر. حتى لو افترضنا أنه إذا فكر المرء فإن تفكيره يثبت

وجوده، فإنه ليس لنا أن نخلص إلى إقرار وجود أي شخص ما لم تكن في حوزتنا أدلة تشهد على أنه يفكر. ودرتسكي لا يشكك في صحة الاستدلال الديكارتي، ولا يشكك حتى في صدق مقدمته. صدق المقدمة مسألة أنطولوجية، أقله وفق نظرية التطابق في الصدق، لكن المسألة الأهم في سياق الكوجيتو هي ما إذا كان المعني (من يقر أنه يفكر) يعرف أنها صادقة (أنه يفكر)، وإذا كان يعرف، فما الوسيلة التي توسل في هذه المعرفة. مجرد اعتقاده أنه يفكر لا يثبت أنه موجود، تماما كما أن مجرد اعتقاد المرء في أنه في هيدلبرغ لا يمنحه معرفة بأنه في ألمانيا، على الرغم من أن هيدلبرغ في ألمانيا. يلزم دائما أن يكون الاعتقاد مبررا بأدلة كافية، إذا أردنا أن نؤسس عليه بأسلوب عقلاني أي نتائج. وعلى حد تعبير درتسكي، في الإبستمولوجيا لا يسعك أن تخلص إلى نتائج ممتازة من مقدمات متوسطة الجودة. إذا كان المدخلات قمامة، فكذا شأن المخرجات.

وغني عن البيان أن درتسكي لا يعنيه أمر وجوده أو وجود ديكارت أو أي شخص آخر، فهو لا يعتقد أن ثمة من يواجه مشكلة حقيقية بخصوص هذا الأمر، بما في ذلك أشد الفلاسفة نزوعا نحو الارتياب. غير أنه معني بالمنزلة الإبستمولوجية التي تحظى بها مقدمة ديكارت، أي بكيفية معرفتنا، أو احتيازنا على مبرر للاعتقاد بأننا نفكر. تحديدا، تدهشه حقيقة أن كل من يعتقد أنه يفكر مقتنع، دون مبرر كاف حسب درتسكي، بأنه يعرف أنه يفكر. وعلى حد تعبيره، ما يحيره هو السؤال الذي يستفسر عن الكيفية التي نعرف بها أننا نفكر، ومبلغ ما يريد من ورقته أن يصيب الآخرين بعدوى حيرته.

قد يجيب أحدنا بأن مبرر اعتقاده بأنه يفكر هو حقيقة أنه يفكر. غير أن هذه الإجابة تنطوي على خلط واضح بين الأنطولوجيا والإبستمولوجيا. صدق القضية، وهذا أمر أنطولوجي، لا يرتهن لأي وقائع إبستمولوجية، كما أن الوقائع الأنطولوجية لا تستلزم بذاتها أي وقائع إبستمولوجية. قد تصدق القضية على الرغم من أنه ليس هناك من يعتقد في صدقها، وقد يعتقد الجميع في صدقها دون أن تكون صادقة. حقيقة أن المرء مصاب بالسرطان لا تمنح بذاتها أي مبرر للاعتقاد بأنه مصاب بداء السرطان. فلماذا يتعين على حقيقة أن المرء يفكر أن تمنحه أي مبرر للاعتقاد بأنه يفكر؟

غير أن المرء قد يجادل عن تنزل حقيقة التفكير منزلة خاصة. صحيح أنه لا حق للمصاب بالسرطان في أن يعتقد بأنه مصاب به إلا إذا أخبره طبيب بذلك، أو شعر بأعراض موثوقة للمرض. لكن الأفكار مختلفة تماما. خلافا لضحايا السرطان، لا حاجة للمفكرين أن يعولوا على أعراض التفكير، ولا للبحث عن أي مبررات تسوغ اعتقادهم بأنهم يفكرون. لا حاجة لأن يعولوا على مؤشرات خارجية للتفكير لأنهم، إبان تفكيرهم، يدركون الأفكار نفسها، وهذا أفضل مبرر للاعتقاد بأنهم يفكرون. يلزم الآخرين التعويل على مؤشرات خارجية كي يعرفوا أن شخصا ما يفكر، لكن هذا لا يلزم المفكر نفسه، لأن لديه اتصالا مباشرا بأفكاره. قد أشك في أنك تفكر، لكني على يقين كاف من أوضاعي الذهنية، يقين يسوغ اعتقادي في أني أفكر.

وفي حين يرى درتسكي أن المفكرين يدركون أفكارهم، وأن هذا الإدراك يمنحهم سلطة متفردة بخصوص ما يفكرون فيه، فإنه ينكر أن هذا يؤمّن لهم مبررا للاعتقاد في أن لديهم أفكارا. في تقديره، ليس لدى المفكرين أي مبرر، يتفردون به، لحسبان أنهم يفكرون. إذا كان لدى المفكرين مبرر للاعتقاد بأنهم يفكرون، فهو مبرر ميسر بالقدر نفسه لأسرهم، وأصدقائهم، وجيرانهم. وفي هذا الخصوص، لا يختلف التفكير عن الإصابة بالسرطان.

قد يقول قائل إن الأفكار تشهد على نفسها أو تحقق نفسها. قد يحسب المرء أنه مصاب بالسرطان ويكون مخطئا في حسبانه، لكنه يستحيل على المرء أن يعتقد أنه يفكر ويكون مخطئا في اعتقاده. خلافا لفكرة أن المرء مصاب بالسرطان وربما خلاف لفكرته حول أي موضوع آخر، محتم أن تكون فكرة أن المرء يفكر صحيحة. إذا اعتقدت أنا أني أفكر يلزم أن أكون مصيبا. إذا اعتقدتَ أنت أني أفكر قد تكون مخطئا. ولذا فإن فكرتي تتنزل منزلة خاصة؛ إنها معصومة عن الخطأ. وهذا ما يجعلني أعرف (على نحو يعجز أصدقائي وجيراني) أني أفكر، ويجعلهم يعرفون (على نحو يعجزني) أنهم يفكرون.

لا يجادل درتسكي في حقيقة أن فكرة أن المرء يفكر تثبت نفسها أو تحقق ذاتها، لكنه يرى أن الاحتياز على هذه الفكرة التي تثبت نفسها لا تؤمّن للمرء مبررا لحسبان أنه يفكر ما لم تكن لديه مبررات لحسبان أن لديه فكرة تثبت نفسها. ذلك أن السؤال هو: أي مبرر لديك لاعتقاد في أنك تفكر؟ قول إنه يستحيل عليك أن تكون

مخطئا في حسبان أنك تفكر ليس إجابة. لا يحوز المرء على مبرر للاعتقاد بأنه يفكر بمجرد احتيازه على فكرة تثبت نفسها مؤداها أنه يفكر. سوف يحتاج أيضا إلى مبرر للاعتقاد أنه يحوز فكرة تثبت نفسها. لكن هذا بطبيعة الحال هو ما نبحث عنه. ليس في وسع المرء أن يعرض كمبرر لحسبان أن لديه أفكارا حقيقة أن بعض أفكاره، فكره أن لديه أفكارا، محتم أن تكون صحيحة. سوف يكون هذا شبيها بطرح، كمبرر لاعتقادي أني قلت شيئا، حقيقة أن قولي قلت شيئا تثبت نفسها. ولتكن كذلك، ولكن أي مبرر لدي لحسبان أني قلت إني قلت شيئا.

قول أشياء إذن فعل يثبت نفسه، بمعنى أن المرء إذا قال شيئا فقد قال شيئا. هذا تحصيل للحاصل. لكن هذا لا يثبت أن أيا منا قال شيئا. وعلى نحو مماثل، صحيح أن فكرة المرء فكرة تحقق نفسها، بمعنى أنه إذا اعتقد المرء أنه يفكر، فمحتم أنه يفكر. هذا أيضا تحصيل للحاصل. لكن هذا لا يثبت أن أيا منا يفكر. ولعل الأمر واضح أشد ما يكون الوضوح في حالة الحاسوب. لا شك في أنه إذا اعتقد الحاسوب أنه يفكر، فإن مجرد اعتقاده في أنه يفكر يثبت أنه يفكر، أقله بحسبان أن الاعتقاد نوعا من التفكير. لكن هذه الحقيقة البدهية لا تثبت بأي حال أن الحواسيب تفكر. مرة أخرى، سلامة الحجة لا تبرهن على صدق مقدماتها، وما لم يكن لدينا مبرر للاعتقاد في صدق مقدماتها، لن يكون لدينا أي مبرر للاعتقاد في صدق نتيجتها.

المفاجئ أن درتسكي يتجنب كليا الإشارة إلى المبرر الذي يطرحه ديكارت للاعتقاد بأنه يفكر. حقيقة أنه يفكر تثبتها عنده حقيقة أن الشك في التفكير هو نفسه تفكير. هذا ما يجعله يقدم للكوجيتو بعبارة، أنا أشك، إذن أنا أفكر. كون الشك ضربا من التفكير يثبت عند ديكارت واقعة التفكير، التي تثبت بدورها واقعة الوجود. صحيح أن هناك من يشكك في صحة الانتقال من واقعة الشك إلى واقعة التفكير، لكن درتسكي لا يقوم بذلك، في سياق كان أحرى به أن يفعل.

بدلا من ذلك يطلب منا درتسكي تذكّر أننا نبحث عن مبررات لدى المرء للاعتقاد في أنه يعتقد أنه يفكر، ليست متوفرة لدى غيره. إننا نبحث عن ظروف لديه اتصال حصري، ومن ثم مميز، تشكل أو تشير إلى دليل على أنه يفكر. إذا كان كائنا بشريا عاديا، سوف يكون لدينا جميعا مبررات للاعتقاد في أنه يفكر. إن لديه دكتوراه في الفيزياء، والعديد من المنشورات، وهو يعرض علينا مهاراته على طاولة البريدج.

بالطبع هو يفكر، ولعله يفكر أفضل منا، وليس هناك نقص في المبررات التي تعزز الاعتقاد في هذا الأمر. وبطبيعة الحال فإنه يحوز هو نفسه هذه المبررات. كل ما نستطيع نحن أن نشير إليه على أنه إنجازات تدل على قدراته الفكرية متوفر لديه. وإذا كانت لدينا مبررات للاعتقاد بأنه يفكر، ويستبين أنها لدينا، فكذا شأن هو نفسه: إنها الوقائع نفسها التي نحوز.

لكن السؤال هو ما إذا كانت هناك أي حقائق يتميز المرء عن أغياره بالاطلاع عليها. هل ثمة شيء يعرف المرء لا يتسع للآخرين إدراكه يمنحه ميزة إبستيمية في مسائل تتعلق بما إذا كانت لديه أفكار؟ هذا على وجه الضبط ما يشكك فيه درتسكي، أو يشكك على الأقل في نجاح من تصدى لإثبات الاتصال الحصري في تحقيقه. تحديدا فإنه يشكك في إمكان أن يفكر المرء، ويعرف أنه يفكر، دون أن يعرف آخرون أنه يفكر.

غير أنه يذهب إلى أبعد من ذلك، إلى ما هو أقرب إلى إثبات أطروحته الأساسية، التي تتعين في التشكيك في أننا نعرف أننا نفكر. عنده، قد يفكر المرء دون أن يعرف أنه يفكر. ولتكريس هذا الإمكان ينظر في الكيفية التي تعلمنا بها التفكير، معولا على دراسات أنجزت في علم النفس.

كل واحد منا، فيما يقول درتسكي، يفكر قبل أن يكتشف أنه يفكر، وإذا صح هذا فإن المرء قد يفكر دون أن يعرف أن يفكر، ومن ثم فإن كونه يفكر يظل في حاجة على شواهد، خلافا لما يفترض الكوجيتو. ولتوضيح هذا يطلب منا تخيل سارة، وهي طفلة عادية عمرها ثلاث سنوات، تفكر لكنها لم تتعلم بعد أنها تفكر. كون المرء يفكر (فيما يخبرنا علماء النفس) شيء لا يفهمه المرء تماما إلى أن يبلغ من العمر ثلاث أو أربع سنوات. سارة لم تصل هناك بعد. إنها تعتقد أن أباها وصل إلى البيت، فهذا ما تخبر به أمها، وهو ما يجعلها تسرع إلى الباب كي تحييه حين تسمع صوت سيارة في الطريق المؤدي إلى البيت.

ما تخبر سارة به أمها هو ما تفكر فيه (تعتقده): أن أبيها وصل إلى البيت. غير أنها لا تعتقد أنها تفكر. لعلها تستخدم كلمة "أفكر" ("أعتقد") في وصف نفسها، ولكنها إن فعلت، فإنها لم تفهم تماما أن ما تعبّر عنه حقيقة حول نفسها، ظرف ذاتي

يحوز محتوى (ما تعتقده) قد يكون باطلا. لكنها سوف تكتسب عما قريب هذه المعرفة، من والديها، ومعلميها، وأشقائها الأكبر سنا، وأصدقائها. سوف تتعلم من الآخرين (أو بمساعدتهم) أن لديها أفكارا تتطابق عادة مع واقع الأمور، أي أفكارا صحيحة، لكنها تفشل أحيانا في التطابق مع الوقائع. وأثناء هذه العملية، تتعلم أنه يمكن تفسير سلوكها، وبطبيعة الحال، تفسير سلوك الآخرين، ليس فقط بحقيقة أن أباها وصل إلى البيت (وهذا أمر سبق لها فهمه)، بل أيضا بحقيقة أنها تعتقد [تفكر] أنه وصل إلى البيت، وهذه حقيقة سوف تتعلم أنه يمكن لها أن توجد فيها، ويمكن أن تفسر إسراعها إلى الباب، دون أن يكون أبوها قد وصل بالفعل إلى البيت. هذا ما يجعل طفل العامين عاجزا عن فهم سلوك شخص يختار صندوقا يعرف الطفل أن خال من الحلوى. طفل الأربعة أعوام يفهم هذا: لقد اختار الشخص هذا الصندوق لأن هذا الشخص اعتقد [أفكر] (خطأ) أن الحلوى في هذا الصندوق (وهذا أمر قد لا يصدق على الطفل).

لفهم أي نوع من منافذ الاتصال مع أفكارنا نحوز عليه، نحن الذين نعتقد أن لدينا أفكارا، ومن ثم فهم نوع المبررات التي لدينا للاعتقاد بأننا نحوز هذه الأفكار، من المفيد فيما يخبرنا درتسكي أن نعتبر نوع المنفذ الذي تحوز عليه سارة لأفكارها، وهي التي لا تعتقد أن لديها أفكارا. لقد أخبرت سارة أمها بأن أباها وصل إلى البيت وأسرعت إلى الباب لأنها اعتقدت أنه وصل إلى البيت. وبطبيعة الحال، لعل من سمعته يدخل بسيارته إلى الممر لم يكن أباها، لكنها اعتقدت أنه هو، وحقيقة أنها اعتقدت في هذا هو الذي يفسر الطريقة التي تصرفت بها. في المقابل، لو أنها اعتقدت أنه ساعي البريد لما أخبرت أمها أن أباها وصل إلى البيت ولما أسرعت لفتح الباب. أفكار سارة ورغابها تفسر سلوكها (الشفهي والجسدي) بالطريقة نفسها التي تفسر بها أفكارنا ورغابنا سلوكنا. الفرق الوحيد هو أن سارة لا تفهم أنه في الوسع تفسير سلوكها بحقيقة أنها "تعتقد" (تفكر) أن أباها وصل إلى البيت (بصرف النظر عما إذا كان وصل بالفعل). أما نحن فنفهم ذلك.

ولكن، فيما يتساءل درتسكي، ما الذي أدركته سارة حين اعتقدت أن أباها وصل إلى البيت؟ على الرغم من أننا نتحدث عادة عن أنفسنا بقول إننا ندرك الوقائع التي نوظف في تفسير سلوكنا وسلوك الآخرين (أدركتُ أن الوقت متأخرا، فأخذتُ طريقا مختصرة؛ نظرتُ في الاتجاه الآخر حين أدركتُ أنني أراقبها)، لا يبدو أن هناك واقعة

متعلقة أدركتها سارة تفسر سلوكها. ليس بمقدورنا أن نقول إنها أدركت (واقعة) أن أباها وصل إلى البيت، فهو لم يصل أصلا، كما أن اعتقادها أنه وصل إلى البيت وسلوكها على النحو الذي فعلت (وطرحها لمبررات لهذا السلوك) لا يشترط أنه وصل بالفعل إلى البيت. لهذا يتعين أن ما ألفته حين اعتقدت أنه وصل إلى البيت، أيا كان هذا الذي ألفته، مستقل (منطقيا) عن مكان وجود أبيها، تماما كما أن اعتقادها أنه وصل إلى البيت مستقل (منطقيا) عن مكان وجوده. ولهذا فإن حقيقة أن أباها وصل إلى البيت ليست ما أدركته.

أيضا فإننا لا نستطيع قول إن ما ألفته هو حقيقة أنها تعتقد أن أباها وصل إلى البيت لأنه على الرغم من أنه يتعين أن تكون هذه حقيقة (خلافا لوصول أباها البيت)، فإنها ليست حقيقة تدركها سارة (كونها تعوز مفهوم الاعتقاد). إنها لا تدرك أنها تعتقد هذا. فما الذي تألفه سارة إذن حين تعتقد مخطئة أن أباها وصل إلى البيت إذا لم يكن (1) حقيقة أن أباها وصل إلى البيت، ولا (2) حقيقة أنها تعتقد أنه وصل إلى البيت؟

إنه ما يسميه الفلاسفة قضية، قضية أن أباها وصل إلى البيت. القضايا هي مواضيع الفكر (المجردة). لا يفصل درتسكي كثيرا في شرح مفهوم القضايا، بل يقتصر على قول إنها تشكل مواضيع الفكر (المجردة) وأنها معاني الجمل الخبرية التي نستخدم في التعبير عن اعتقاداتنا. وللتوضيح يمكن أن نقول ابتداء أن أقرب مفهوم للقضية هو مفهوم الجملة الخبرية، لكنه لا يتكافأ معه تماما. الجملة الخبرية، قول تقريري يحمل معنى تاما يحسن السكوت عنده. والجملة الخبرية، خلافا للجمل الإنشائية، تحمل قيمة صدقية بعينها، فهي إما أن تكون صادقة أو كاذبة. غير أن الجمل الخبرية قد تترادف، أي تحمل المعنى نفسه. أيضا فإن الجملة الخبرية قد تقال بأكثر من لغة، دون تؤثر ترجمتها إلى لغات أخرى في قيم صدقها. صحيح أن هناك بعض الاستثناءات المفارقية لهذا الحكم الأخير، كما حال الجملة "هذه الجملة عربية"، التي تشير إلى نفسها، لكن هذه الاستثناءات لا تؤثر في حجة درتسكي. ويمكن تعريف القضية بأنها المعنى المشترك بين الجمل الخبرية المترادفة. لكن القضية، خلافا للجملة، مفهوم منطقي خارج نطاق اللغة.

حين اعتقدت أن أباها وصل إلى البيت، فيما يزعم رسل، ألفت سارة قضية، قضية أن أباها وصل إلى البيت. وخلافا للوقائع أو الحقائق، يمكن لما عرفته سارة

بشكل مباشر (أي ألفته) أن يكون كاذبا. لذا فإن ما تألفه سارة حين اعتقدت خطأ أن أباها وصل إلى البيت ليس حقيقة أن أباها وصل إلى البيت ولا حقيقة أنها تعتقد أن أباها وصل إلى البيت، بل القضية (الكاذبة في هذه الحالة) أن أباها وصل إلى البيت. بحسبان الطريقة التي نفهم بها الألفة، يمكن لسارة أن تكون على دراية مباشرة مع هذه القضية دون أن تعرف أنها قضية.

ثمة إذن معنى، مباشر تماما، يكون لدى المرء وفقه إدراك مميز لأفكاره الواعية الراهنة حتى قبل أن يعرف أنه يحوزها، وقبل أن يعرف ما تكونه. سارة تدرك ما تعتقده، أن أباها وصل إلى البيت، دون أن تعرف أنها تعتقد ذلك، تماما كما أنها قد تدرك بها ما تم الإبلاغ عنه في الراديو، أن الثلج ينهمر في ميامي، دون ملاحظة أنه تم الإبلاغ عنه في الراديو. وحين يقول درتسكي إن إدراك سارة لما تعتقد إدراك مميز فإنه لا يعني أنها وحدها فقط تدرك ما تعتقده، إذ في وسعنا نحن أيضا أن ندرك ما تعتقده (أن أباها وصل إلى البيت) بأن نعتقد ذلك نحن أنفسنا، بل بمعنى أنه على الرغم من أننا نستطيع أن ندرك ما تعتقد فيه (القضية التي تدركها)، فإن سارة تدركه بالضرورة. هذا هو ما يعنيه أنها تعتقد. حقيقة أنه يلزم أن تدركها هي ما تجعلها سلطة بخصوص ما تعتقد على الرغم من أنها لا تعرف أنها تعتقده. إنها سلطة بخصوص ما تعتقد بمعنى أنه إذا أردنا أن نعرف ما تعتقده سارة، يلزمنا أن "نسألها" هي. وبالطبع فإننا لا نستطيع أن نفعل ذلك عبر سؤال سارة عما تعتقده. لن تفهم (فيما نفترض) ما نتحدث عنه. غير أن هناك سبلا أخرى للحصول على هذه المعلومة. بمقدورنا، على افتراض أنها سوف تتعاون معنا، أن نسألها عما إذا كان أبوها وصل إلى البيت. أو نسألها عن السبب الذي جعلها تسرع إلى فتح الباب. سوف تكشف إجاباتها عما تعتقده، بشكل موثوق به إلى حد يمكننا من معرفته. لو لم تكن سارة تدرك ما تعتقده حين أسرعت إلى الباب، فكيف يمكنها أن تكون (خلافا لأمها أو أي شخص آخر) السلطة في تحديد السبب الذي جعلها تسرع إلى الباب.

ولكن، فيما يتساءل درتسكي ثانية، إذا كان هذا هو نمط اتصالنا بأفكارنا، ألا يؤمّن لنا هذا إجابة عن السؤال الذي كنا نتجادل حوله، بخصوص المبررات التي نحوز للاعتقاد في أننا نفكر؟ قد نحسب أننا نستطيع أن نجادل على النحو التالي. كل من يفكر لديه مبرر للاعتقاد بأنه يفكر لأنه على ألفة (دراية مباشرة) بقضية، محتوى

فكرته، تشير إلى حضور الفكرة التي تشكل محتواها. بحسبان أنك لا تستطيع أن تحوز محتوى فكرة دون فكرة، فإن إدراك محتوى الفكرة إدراك لشيء هو أوثق علامة ممكنة على فكرة. حتى سارة لديها مبرر للاعتقاد في أنها تفكر. كل ما يلزمها هو أن تتعلم أن تدرك هذه المبررات كمبررات عبر تعلم القضية التي تألفها (وكانت تألفها) على أنها قضية، أي على أنها محتويات فكر. الأمر شبيه بتعلم، أيضا في سن مبكرة، أن ما كان يشعر به المرء حين يجوع يسمى جوعا.

لسوء الحظ، فيما يخبرنا درتسكي، أن الاعتقاد لا يشبه الجوع. حين تجوع ثمة (على نحو غالب ما يكفي) شيء تدركه، شيء تشعر به، يشير إلى أنك جائع. إنك تشعر بالجوع حتى لو لم تكن تعرف أن ما تشعر به هو الجوع. في المقابل، حين تعتقد، لا شيء فيك تدركه، لا شيء تشعر به، يشير إلى أنك تعتقد. ما تدركه حين تعتقد عبارة عن قضية، والقضايا، خلافا للأشياء التي تشعر بها، لا تشير إلى أي شيء. وخلافا للحقائق، قد تكون القضايا كاذبة، والقضايا الكاذبة (خلافا لحقيقة أنها كاذبة) لا تضاعف احتمال صدق أي شيء آخر. القضايا الكاذبة لا تساوي شيئا، لا قيمة إبستيمية لها. القضية أن للخنازير أجنحة قضية محترمة تماما، شيء يمكن للمرء أن يعتقده حقيقة، ولكنها لا تحوز بالمطلق على أي قيمة إثباتية. وبالتوكيد فإنها ليست مبررا للاعتقاد في أن الخنازير قادرة على الطيران. ولو كانت كذلك، لكان لدينا جميع مبررات للاعتقاد في قدرة الخنازير على الطيران. ما كان يمكن له أن يشكل مبررا لاعتقاد في قدرة الخنازير على الطيران هو صدق أن للخنازير أجنحة، أي لو كان امتلاك الخنازير أجنحة حقيقة. لكنه لا يلزم القضايا أن تكون صادقة. إنها ليست حقائق. ولذا فإن إدراك ما يعتقده المرء، قضية أن للخنازير أجنحة، لا تؤمّن مبررا للاعتقاد في قدرة الخنازير على الطيران. الحال أنها لا تؤمّن مبررا للاعتقاد في أي شيء. ولا ريب في أنها لا تؤمّن للشخص الذي يعتقد أن للخنازير أجنحة، ويدرك بذلك هذه القضية، مبررا لأن يعتقد أنه يعتقد أن للخنازير أجنحة. لو أنها تؤمّن مثل هذا المبرر لكان لدي ولديك (كوننا ندرك هذه القضية بطريقة مختلفة) مبرر للاعتقاد في قدرة الخنازير على الطيران.

يصدق الأمر نفسه حين ما يكون ما يعتقده المرء هو أنه يفكر. ما يعتقده المرء في هذه الحالة هو أنه يفكر، ولكن هذا، القضية أن المرء يفكر، ليست مبررا للاعتقاد

في أن القضية صادقة. إنها ليست مبررا للاعتقاد في أن المرء يفكر. ما كان له أن يكون مبررا للاعتقاد في أن المرء يفكر هو شيء يشير إلى أن هذه القضية صادقة (أو أن كون المرء يفكر صحيحا). ولكن لا واحدة من هاتين الحقيقتين حقيقة يألفها المرء حين يعتقد أو حين يعتقد أنه يفكر.

ومن كل هذا يخلص درتسكي إلى أنه لا شيء ندركه في التفكير يشير إلى أننا نفكر. صحيح أننا نتمتع بإدراك ضروري ومميز لأفكارنا (أي محتويات أفكارنا)، لكن ما ندركه لا قيمة تدليلية لديه. الإدراك المميز له يجعل المرء سلطة بخصوص ما يعتقد، لكنه يقوم بذلك بالطريقة نفسها التي تجعل سارة سلطة بخصوص ما تعتقد. إنه لا يجعل المرء سلطة بخصوص حقيقة أنه يفكر.

وكما يشير نقاش حالة سارة، يتم الاتصال بأفكارنا عبر محتواها: ما نفكر فيه. هذا هو جانب تفكير المرء الذي يدركه حتى حين لا يعرف هذا الذي يدركه. وهذا الأسلوب في الاتصال بأفكارنا يجعلنا مدركين لها عبر جانب (محتواها) يجعل الفكرة فكرة، لكنه يجعلها أيضا فكرة بعينها، فكرة أن الوالد وصل إلى البيت مثلا. لذا قد نفترض أن إدراك هذا الجانب من الفكر، في مقابل جوانب أخرى منه، هو الذي يكشف بالشكل الأكثر وضوحا وتحديدا لمن يدركونه جانب أي شيء هو على وجه الدقة. غير أنه لا يقوم بذلك. إنه لا يكشف عن أي شيء.

ولتوضيح هذه الأحكام المركبة، يقترح علينا درتسكي أن نقارن أسلوبنا في إدراك ما نفكر فيه (أفكارنا) بأسلوبنا في إدراك ما نقول (تصريحاتنا الشفهية). يعتقد [يفكر] الناس في أشياء، ويقولون أشياء، وغالبا ما يقولون ما يعتقدون. غير أن اتصال المرء بما يقوله شخص ما (بما في ذلك هو نفسه) إنما يكون عبر فعل قوله، وهذا حدث صوتي أو ملاحظ من نوع بعينه. إننا نسمع أن الشخص يقول إن لديه موعدا مع طبيب الأسنان، فنعرف، إذا كنا نفهم اللغة، وأدركنا ما يقوله هذا الشخص، القضية المعبّر عنها. إننا ننتقل من القول إلى المُقال، من فعل إلى محتوى. في البداية ندرك الفعل، ثم (إذا كنا نعرف اللغة) ندرك المحتوى. إذا كنا نجهل اللغة، نظل ندرك (نسمع) فعل الكلام، الفعل الشفهي، دون أن ندرك (أي نفشل في معرفة) ما قيل (القضية المعبّر عنها).

في حالة الفكر، طريق الاتصال معكوس. سبيل اتصالنا بأفكارنا هو محتواها. إننا، مثل سارة، ندرك في البداية ما نعتقده (أن الوالد وصل إلى البيت)، وبعد ذلك، حين نبلغ الرابعة تقريبا، ندرك حقيقة أننا نعتقد فيه. في البداية هناك إدراك للمحتوى، وبعد ذلك إدراك للفعل (إدراك حقيقة). خلافا للشخص الذي يقول "وصل والدي إلى البيت"، وهذا فعل شفهي يمكن للمرء أن يدركه دون أن يدرك ما قيل (القضية المعبّر عنها)، يمكن للمرء (كما يحدث لمن يبلغ من العمر عامين) أن يألف ما يعتقده (القضية المعنية) دون إدراك أو فهم لفعل الاعتقاد [التفكير] نفسه. أسلوب الاتصال معكوس كليا.

ومن كل هذا يخلص درتسكي إلى أن أسلوبنا في الاتصال بأفكارنا، وهو أسلوب اتصال (إدراك مباشر لمحتوى) يمنحنا سلطة بعينها بخصوص ما نفكر [نعتقد] فيه، لا يؤمّن لنا أي مبرر للاعتقاد بأن لدينا أفكارا. أنا على استعداد للتسليم بأن لدينا مبررات، بل مبررات غامرة، للاعتقاد في أننا نفكر، لكن هذه المبررات هي المبررات نفسها التي تحوزها أسرنا وأصدقاؤنا وجيراننا للاعتقاد بأننا نفكر. ما نعوزه هو رصيد من الأدلة، حقيقة ما، لدينا اتصال بها تعزز أفكارنا بحيث تصل إلى درجة تيقن ليست ميسرة للآخرين. إذا كنا نتوق إلى يقين ديكارتي، فإن، كوجيتا [تفكر]: أنت تفكر، إذن أنت موجود ليست أقل وجاهة من كوجيتو [أفكر]: أنا أفكر إذن أنا موجود.

قد لا تبدو هذه نتيجة تستحق كل ما بذله درتسكي من عناء من أجل إثباتها. ولكن علينا أن نتذكر أنها، لو كانت صحيحة، تقوض المشروع الديكارتي برمته. إذا كانت كوجيتا لا تقل وجاهة عن كوجيتو، فإن حقيقة أن كوجيتا تتعلق بالآخرين، الذين علق ديكارت الحكم بخصوص وجودهم، إنما تبين أن الكوجيتو لا ينجح حقيقة في تحقيق الغاية التي صمم لتحقيقها. الواقع أنه يمكن التعبير عن حجة درتسكي في شكل برهان خلف. لو كان الكوجيتو وجيها، لكان الكوجيتا وجيها. لكنه يستبين أن الكوجيتا ليس وجيها، فهو يفترض ما علق ديكارت الحكم بشأنه، ولذا فإن الكوجيتو ليس وجيها. وبسقوط الكوجيتو ينهار صرح المشروع الديكارتي بأسره. إذا لم يتيقن ديكارت من وجوده، حتى كذات مفكرة، فإنه لن يعثر فيها على فكرة الكائن الكامل، الذي يضمن كماله وجوده، ولما تسنى له العثور على كائن يضمن له أن ما يبدو واضحا ومتميز صحيح بالضرورة.